

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أكرم المرسلين،
الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والسراج المنير، سيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد

فإن المرأة لها مكانة مختلفة في المجتمع الجاهلي تبعاً لرقها
وحريتها؛ حيث كان من بينهن فتيات يقمن بتقديم الخمر في
مجالس اللهو والشراب، والعزف على آلات الطرب، أو يتخذن
كأخذان أو جوار يخدمن عليّة القوم، وغالباً ما يكون ذلك من
الإماء، يقول الشاعر «طرفة بن العبد البكري»:

ندامى بيض كالنجوم وفتية تروح علينا بين بُردٍ ومجسد
رحيب قطاب الجيب منها رقيقة يجس الندامى بضة المتجرّد
إذا نحن قلنا: أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدّد
إذا رجعت في صوتها خلت تجاوب أظآر على ربّع ردى^(١)
أما الحرّة فقد كانت أعلى شأنًا، وأرفع قدرًا؛ حيث كنّ
مترفات مخدومات، ينمن الضحى، ولا ينتطقن عن تفضل، وأن

(١) الديوان ص ٣٠، ٣١ - ط: دار صادر - بيروت - لبنان - بدون تاريخ.

لها من يقوم بخدمتها، فهي ليست بحاجة إلى شِدِّ المنطقة في وسطها لتساعدها على القيام بخدمتها، يقول امرؤ القيس:
وتضحى فتيتُ المسك فوق فراشها نوؤم الضحى لم تنتطق عن تفضل
فكان للمرأة منزلتها المقدورة، وكان العربي يحبها فيناديها
بالكنية تقديرا لها، وإعظاما لشأنها، وكراهية للتصريح باسمها،
غيرة منه عليها، ولذلك كان يناديها باسم ابنها، أو باسم أخيها
إن لم يكن لها ولد.

أما وأدأ حية والذي سجله القرآن بقوله - تعالى - ﴿ وَإِذَا
الْمَوءُ دَهُ سَمِلَتْ ۙ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۙ (٩) ﴾ سورة التكوير، وقوله -
تعالى - ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۙ (٥٨)
يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيَسْكَبُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْرٌ يُدْسُهُ فِي التَّرَابِ ۗ
أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۙ (٥٩) ﴾ سورة النحل.

فقد كان ذلك الاعتقاد سائدا لديهم، وهو إن زوجهَا لغنى
لطم خدها وسب جده، وإن زوجها لفقير رآها عنده والهم
عنده؛ لذا سأل الله أن يأخذها سريعا وإن كانت أحب الناس
عنده، فقد صور ذلك في شعره الصادق العاطفة والإحساس
والشعور فيقول:

أحب بنيتي ووددت أني دفنت بنيتي في قاع لحدي

وما بى أن تهون علىّ لكن مخافة أن تذوق الذلّ بعدى
فلو زوجتها رجلا غنيّا سيلطم خدّها ويسبّ جدّى
ولو زوجتها رجلا فقيرا أراها عنده والهم عندى
سألت الله يأخذها سريعا وإن كانت أحبّ الناس عندى

ومع ذلك فقد كان لها قدرها، ومنزلتها غير المنكورة
لديهم جميعا، وقد كان رقى النساء يومذاك دليلا على ارتقاء
العرب فكرا؛ حيث كان للمرأة رأى يحترم ويؤبه له، وهى
صاحبة رفعة وأنفة، وشمم وإباء فنبغت غير واحدة فى الشعر
والسياسة، والحرب والتجارة، ولا سيما فى أوائل الإسلام إثر
ما حصل من نهضة فكرية وعقلية، فالنساء اللواتى اشتهرن
فى الجاهلية بالشجاعة ورباطة الجأش كثرة كاثرة، وعلى
سبيل المثال لا الحصر نذكر بعضهن من أمثال: «سلمى بنت
عمرو» إحدى نساء بنى عدى بن النجار؛ حيث كانت لا تتزوج
الرجال إلا وأمرها بيدها، فإذا عنّ لها من زوجها شىء تركته،
وغالبا ما كانت تخبّر المرأة قبل الزواج، فيؤخذ رأيها فى شريك
حياتها، ومن هؤلاء النسوة «هند بنت عتبة» وكانت قد شرطت
على أبيها أن يصف لها من يتقدم لخطبتها دون ذكر اسمه،

فقال لها ذات يوم: إنه قد خطبك رجلان من قومك، ولست مسميا لك واحدا منهما حتى أصفه لك.

أما الأول: ففي الشرف الصميم، والحسب الكريم، تخالين به هوجا من غفلته، وذلك أسجاح من شيمته، حسن الصحابة، سريع الإجابة، إن تابعته تبعك، وإن ملئت كان معك، تقصين عليه في ماله، وتكتفين برأيك عند مشورته.

وأما الآخر: ففي الحسب الحسيب، والرأى الأريب، بدر أرومته، وعز عشيرته يؤدب أهله ولا يؤدبونه، إن اتبعوه أسهل بهم، وإن جانبوه توغر عليهم، شديد الغيرة سريع الطيرة، صعب حجاب القبة، إن حاج فغير منذور، وإن نوزع فغير مقهور، وقد بينت لك كليهما.

فقال: أما الأول: فسيد مضياع لكريمته، موات لها فيما عسى أن تعتصى أن تلين، وتضيع تحت خبائثها، إن جاءته بولد أحمقت، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت، اطو ذكر هذا عني، ولا تسمه لى. وأما الآخر: فبعل الحرة الكريمة، وإنى لأخلاق هذا لواقمة، وإنى لآخذ بأدب البعل مع لزوم قبتي، وقلة تلفتى، وإن لسليل بيتى وبيته لحرى أن يكون المدافع عن حريم عشيرته،

الزائد عن كتيبتها، المحامى عن حقيقتها، المنبت لأرومتها،
غير مواكل ولا زميل عند صعصة الحروب.

قال: ذاك أبو سفيان بن حرب. قالت: فزوجه لى.

ومنهن أيضا «عمرة بنت علقمة الحارثية» فقد رفعت لواء
قريش فى وقعة «أحد» فالتف الناس حولها، و«هند بنت عتبة»
أنفة الذكر، وزوج أبى سفيان، والتي مثلت بجثة «حمزة بن
عبد المطلب» عم رسول الله ﷺ واعتلت صخرة تُنشد الأشعار
فخرا بالنصرة على المسلمين، وقد أسلمت وحسن إسلامها.

وعُرف منهن بالحزم وصواب الرأى «خديجة بنت خويلد»
فقد كانت لبيبة حازمة، وذكية عاقلة، ذات شرف وغنى،
والدليل على ذلك اختيارها لرسول الله ﷺ ليكون على تجارتها،
وهى أول من أسلم^(١).

وذات النفس الكبيرة والهمم العوالى «الخنساء» والتي شجعت
أولادها على الثبات فى وقعة القادسية، فقالت لهم: «يا بنى،
لقد أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وإنكم لبنى أب واحد،
وأم واحدة ما غبرت نسبكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ج ٥ ص ٥٦، وأيضا تاريخ آداب اللغة العربية
لجورجى زيدان ج ١ ص ٣٩ بتصرف.

غالكم ، وقد علمتم ما أعدّه الله من الثواب والأجر للشهداء ، فامضوا إلى غايتكم». فمضوا واشتركوا في المعركة ، واستشهدوا جميعا ، فلما نُبئت باستشهادهم كانت مقولتها : «الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم ، وأدعو الله أن يجمعني وإياهم في مستقر رحمته».

وكان من بينهن شواعر عُرفن بقرض الشعر وإنشاده في الأسواق الأدبية ، ومنهن «الخنساء» التي أوقفت جُلَّ شعرها على رثاء أخيها «صخر» وكان مما قالت فيه :

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
ومنهن شواعر لم ينلن كبير شهرة؛ لضياح شعرهنّ، عدا
نتف مبعثرة وردت في بطون أمهات الكتب، ودفات كنوز
المعرفة، ومنهن «كبشة» وهي أخت «عمرو بن معد يكرب»،
و«جلييلة بنت مرّة» امرأة «كليب» الفارس الشهير، ولها فيه
مرآث عظيمة، و«ميسة بنت جابر» زوج «حارثة بن بدر» ولها
فيه رثاء رائع، و«أميمة» امرأة الشاعر «ابن الدمينة» وقالت شعرا
تعاتبه فيه، فقالت :

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمت بي من كان فيك يلوم

وأبرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضا أرمى وأنت سليم
وأنت الذى أحفظت قومي فكلهم بعيد الرضا داني الصدود كلهم^(١)
فأجابها بمثل عتابها فقال:

وأنت التى كلفتني دلج السرى رجون القطا بالجهلتين جثوم
وأنت التى قطعت قلبى حزازة وقرّفت قرح القلب فهو سقيم
فلو أن قولاً يكلم الجسم قد بدا بجسمى من قول الوشاة كلوم^(٢)

كما كان أبو نواس يروى لستين شاعرة من العرب، وكما نبغ بعض النسوة فى الشعر وكان لهنّ منه حظ كذلك نبغ بعضهن فى الخطابة وكنّ خطيبات شهيرات يُجَدُن القول، ويمتلكن أذمة البلاغة، ويمسكن بناصية البيان، ومن بينهن «هند بنت الخس الإيادية» و«جمعة بنت حابس» وغيرهن من النساء اللواتي نلن شهرة فى الشعر والخطابة.

وكنّ أيضا طبيبات يأسين الجراح، ويداوين المرضى، وبخاصة فى المعارك الحربية، ومن أشهرهن «زينب» طبيبة بنى «أود» وكانت تعرف الطب، وتعالج العين والجراح.

(١) ديوان ابن الدمينية: لأبى العباس ثعلب، ومحمد بن حبيب - تحقيق: أحمد راتب النفاخ - مكتبة دار العروبة - بالقاهرة - مطبعة: المدني - ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م ص ٤٢.
(٢) ديوان ابن الدمينية ص ٤٢.

وهناك كوكبة من النساء شغفن بالشعر وحفظه ودراسته ، منهن أم المؤمنين السيدة الفضلى «عائشة بنت أبى بكر» - 9 - فقد كانت تحفظ كل شعر «لبيد».

ومنهن من كان الشعراء يحتكمون إليهن فى أيهما أشعر؟ ومن ذلك حكومة «جندب» زوج «امرئ القيس» فى الفرس ، حيث حكّمها زوجها بينه وبين «علقمة الفحل» فحكمت لعلقمة حكما يدل على ذكاء ومعرفة ، وإن كنا نرى أن حكومتها بنيت على العاطفة والتي هى من طبع النساء ، ولذلك طلقها «امرؤ القيس» وتزوجها «علقمة الفحل».

وهناك نسوة نبغن فى صدر الإسلام وفيهن مناقب الجاهلية ، فكأن يعقدن المجالس لمدارسة الشعر ونقده ، كما كانت تفعل «سكينة بنت الحسين» - 9 - حيث كانت تجمع الشعراء وتحادثهم وتنتقد أشعارهم. وكذلك «عائشة بنت طلحة» والتي اشتهرت بالعلم ومجالسها الأدبية. وفى مكة امرأة اسمها «خرقاء» لديها سماطان من الأعراب تحدثهم وتناشدهم بلا ريبة أو سوء ظن ، ومثلها فى ذلك «عمرة» امرأة «أبى دعبل» الشاعر ، فقد كانت تجتمع بالشعراء لإنشاد الشعر قبل أن يتزوجها «أبو دعبل» وتزوجها بعد أن تعرّف عليها فى مجلسها هذا.

ومثل هذه الأمور إن دلت فإنما تدل على مدى رقى العرب وشغفهم بالشعر، وحبهم للشعراء، وما كان لهما من أثر بالغ في المجتمع العربي بعامة، والجاهلي بخاصة.

وبعد تبيان ما للمرأة العربية من مكانة سامقة، في الجاهلية والإسلام حيث إن الإسلام أعلى شأنها، ورفع قدرها، اخترنا شخصية جاهلية تدل دلالة حاسمة على ما كان للمرأة من مكانة سامية، حيث قرضت الشعر، ورواه الرواة عنها، وذلك دليل على ما كانت تتمتع به من حرية في الجاهلية، ثم نما وزاد، وهذبه الإسلام وصقله.

«خَرْنِق» بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وكسر النون بعدها قاف، هي امرأة شاعرة، جاهلية، قال «أبو عبيدة» هي «خَرْنِق بنت بدر بن هَفَّان» من «بنى سعد بن ضُبَيْعة» رهط «الأعشى»، هكذا أورد في «العُباب» «للصَّنَّاعِي»، وفي كتاب «التصنيف» «للعسكري»، «شروح أبيات الكتاب والجميل»: «خرنق بنت هَفَّان» القيسية من «بنى قيس بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب بن علي بن بكر بن وائل» بحذف «بدر»، وهي أخت «طرفة بن العبد البكري» لأمه كما أومأنا إلى ذلك آنفا.

ويقول «يعقوب بن السكّيت» فى «أبيات المعانى»: «هى عمّة
«طرفة بن العبد»^(١).

و«خرنق» من الأسماء المنقولة؛ لأن الخرنق فى اللغة «ولد
الأرنب»، والخرنق أيضا من معانيه «مصنعة الماء»، وهو مثل
«الصّهريج»، والنون أصلية، وأما «هفّان» بفتح الهاء وكسرها
وتشديد الفاء، فهو اسم مرتجل غير منقول، وهو مشتق من
«الهفيف» والهفيف: سرعة السير^(٢).

و«خرنق بنت بدر بن هفان» أخت الشاعر «طرفة بن العبد
البيكرى» لأمه، واحدة من هؤلاء النسوة اللاتي نبغن فى قول الشعر
وإجادته، بيد أن ما وصلنا من شعرها قليل جدا، ولعل ذلك راجع
إلى أن المجتمع الجاهلى لم يكن يسمح لمثيلاتهما بالحرية الكاملة،
وأن «خرنق» ومثيلاتهما لم يجدن كبير عناية من رواة الشعر فى
العصر الجاهلى؛ ولذلك قمنا بشرح ما وصل إلينا من شعرها
مجموعا فى ديوان حقيقه الأستاذ الدكتور «حسين نزار» وبعض
الأشعار التي عثرنا عليها فى بعض المصادر الأدبية وكنوز التراث.

(١) خزنة الأدب للبغدادى ج ٥ ص ٥٥ - ط: الثانية - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
نشر: مكتبة الخانجى بالقاهرة.

(٢) ذاته.

فإن كنت قد وفقت فذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ،
وإن تكن الأخرى فحسبى أننى مهتد السبيل أمام عشاق
الدراسات الأدبية وطلاب المعرفة ، والله ولى التوفيق .

أ. د. على أحمد الخطيب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد
والعميد الأسبق لكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر الشريف – فرع جرجا